

وضع الظاهر مكان الضمير في تفسير إرشاد العقل السليم
من سورة يونس إلى سورة يوسف أمودجا
(دراسة تحليلية)

Muhammad Abdul Aziz¹, Zulkarnain Muhammad Ali²

¹The World Islamic Science & Education University

abdulaziz.syamsalis@gmail.com

²Institut Agama Islam Tazkia

zulkarnain@tazkia.ac.id

الملخص

تتضمن هذه الدراسة على قيمة اهتمام تفسير إرشاد العقل السليم بقضية وضع الإظهار مكان الإضمار، فهذا التفسير له منهج الذي التزم به في عرض هذه القضية. من أهداف هذه الدراسة إبراز منهج أبي السعود في عرض القضية وضع الظاهر مكان الضمير، ومعرفة الآيات التي فيها وضع الظاهر مكان الضمير، والوقوف على الأغراض في قضية وضع الظاهر مكان الضمير عند أبي السعود. وهذه الدراسة استعملت المنهج التحليلي لما لها من الإقامة بتركيب الأفكار وتقويمها ورجوع العناصر إلى أصولها وتتبعها في التأثير على من جاء بعده. واستنتجت هذه الدراسة على أن هناك تقريبا بضعة مواضع التي تكلم صاحب إرشاد العقل السليم بقضية موضع الإظهار مكان الإضمار، كما بين أن هناك الأغراض المختلفة لهذا الوجه البلاغي من خلال سورة يونس إلى سورة يوسف.

الكلمات الدالة: أبو السعود، الإظهار، الإضمار.

مقدمة

إن الله تعالى أنزل كتابه الكريم باللغة العربية، كما جاء في سورة يوسف: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ

تَعْلَمُونَ ۝۲﴾ فكما أن الله تعالى أنزل القرآن بالعربية فإنه يستلزم أن يكون مع القرآن أساليب العربية وتراكيبها

وبلاغتها. لذا، تجد بعض المفسرين اهتموا بالحديث عن القرآن من حيث بيانه وأساليبه كما تجد أبا السعود في

القرن العاشر الهجري قد برع في تفسيره المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم في هذه القضية. فتبعا

لهذه الفكرة، حاولت هذه الدراسة لتحليل وجهة نظر أبي السعود في تفسيره واستخراجها حول قضية من قضايا البلاغة القرآنية وهي قضية وضع الظاهر مكان الضمير.

تتجلى أهمية هذه الدراسة في حديثه عن المفسر الذي كان قد برع في البيان القرآني وهو أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، ومما التفت أبو السعود في تفسيره هو ما يسمى عند البلاغيين بوضع الظاهر مكان الضمير، فهذه الدراسة أخذ جزءاً من تفسيره كنموذج من اتجاهته في هذه القضية، وهذا النموذج تأخذ الدراسة من سورة يونس إلى سورة يوسف.

منهجية الدراسة

تقوم هذه الدراسة على المنهج التحليلي الإستقرائي؛ على أن هذا المنهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية المختلفة تفكيكا أو تركيباً أو تقويماً¹. وفي هذه الدراسة يكون العمل أن نتبع أقوال المفسر المقصود وهو أبو السعود في تفسيره كما أنه لا بد من طول النظر فيه وتحوال الفكر على صفحاته وتقليب الرأي جنباته²، ثم تحاول الدراسة بأن تقوم بدراسة طبيعتها ومدى تأثيرها على من جاء بعدها ووظائفها وغير ذلك ليركب منها النتائج العلمية المعينة.

وحرى بالذكر أن هذا المنهج لتحقيق واقعية البحث لا بد أن نقيده بالمانع من الموانع العلمية، والمانع هنا المانع الإنتخابي، ويعني به - كما ذكر علماء المناهج - أنك تنتخب جزءاً من كل لتركيز البحث عليه سواء هذا الجزء شخصاً أو كتاباً أو مكاناً³. ففي هذه الدراسة أخذنا بعض السور المحددة لتكون هذه السور مانعاً انتخابياً لهذا البحث.

¹ أجديات البحث في العلوم الشرعية، د. فريد الأنصاري، دار السلام- القاهرة ٢٠٢٠م، ص ١١٩.

² انظر: منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً، د. فاروق حمادة، مطبع النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ١٩٩٥م، ص ٣٣.

³ أجديات البحث في العلوم الشرعية، د. فريد الأنصاري، دار السلام- القاهرة ٢٠٢٠م، ص ٤٧.

لمحة عن تفسير إرشاد العقل السليم ومؤلفه

تفسير أبي السعود المسمى بإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم هو تفسير له شهرة واسعة، وصيتا ذائعا، وهو مرجع ذو أهمية ظاهرة، اعتمد عليه كثير ممن جاء بعده⁴، يعد من التفسير البياني للقرآن الكريم لما له من الاهتمام في هذا الجانب. وهو تفسير ضخم في ثلاثة أجزاء، يُطبع في تسعة مجلدات.

والمؤلف هو أبو السعود اسمه محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السعود: ولد سنة ٨٩٨ هـ وتوفي ٩٨٢ هـ؛ مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية، ودرس ودرس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في بروسة فالقسطنطينية فالروم ايلي. وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢ هـ وكان حاضر الذهن سريع البديهة: (كتب الجواب مرارا في يوم واحد على ألف رقعة) باللغات العربية والفارسية والتركية، تبعا لما يكتبه السائل.⁵

تعريف وضع الظاهر في مكان الضمير

المتأمل لكتب البلاغة يجد أن مثل هذا المسمى يحمله الأسماء المختلفة، كما سماه بعض المعاصرين بوضع الظاهر مكان الضمير⁶ وسمى الآخرون بالإظهار في مقام الإضمار ولكن في الحقيقة كلها شيء واحد وهو مصطلح بلاغي معناه: أن يكون السياق يقتضي أن يؤتى بالضمير، ولكن يؤتى بالظاهر مكان الضمير.⁷

فالأصل أن يأتي الكلام مطابقا لمتضى الحال، ولكنه قد يأتي الحال بما يسمى بالخروج على خلاف مقتضى الظاهر، واتضح أن وضع الظاهر في مكان الضمير يندرج ضمن موضوعات الخروج على خلاف مقتضى الظاهر

⁴ منهج أبي السعود في تفسيره من خلال ما كتب عنه، د. فريد بن عبد العزيز السليم، مجلة الحكمة د.م، د.ت، ص ٣٣.

⁵ الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، دار العلم للملايين ٢٠٠٢ م ج ٧ ص ٥٩.

⁶ أنظر: البلاغة فنونها وأبحاثها علم المعاني، د. فضل عباس، دار انفانس- عمان، ٢٠١٨، ص ٥٢٣.

⁷ الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم مفهومه، أغراضه، وعناية المفسرين به، د. عبد الرزاق حسين أحمد، وزارة الأوقاف والؤون الإسلامية- الكويت، ١٤٣٣ هـ، ص ٢٢.

لداع من الدواعي البلاغية، ومن تلك الموضوعات؛ الالتفات، والأسلوب الحكيم، ووضع الخبر موضع الإنشاء وبالعكس، والانتقال من الماضي إلى المضارع وبالعكس، فهذه كلها خروج على خلاف مقتضى الظاهر، وقد درسها البلاغيون تحت هذا الإطار.⁸

منهج أبي السعود في العرض

المتأمل لتفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود يجد أنه -أي المؤلف- قد التزم منهجا في عرض الآيات التي فيها أوجه بلاغية لا سيما فيما يتعلق بوضع الظاهر مكان الضمير. وإنه كان ينهج منهجا كالآتي:

١. الوقوف على الآيات

يعنى أن أبا السعود إذا مر بالآية من الآيات التي فيها هذا الوجه -أي وضع الظاهر مكان الضمير- لا يمشى مهملا إلا أن يقف على تلك الآيات، وبدأ أن يتحدث عن هذه الآيات. وعرفنا من هذه النقطة، أن أبا السعود يعد من المفسرين البارزين في قضية البيان القرآني، لأنك قد تجد من المفسرين الذين لا يلتفتون ويقفون على مثل هذه الآيات لأن همومهم في قضية أخرى، مثلا في قضية الرواية المأثورة وغير ذلك، وهؤلاء منهم: ابن جرير الطبري -على قدر جلاله- إنه لا يهتم كثيرا في طريقته بمثل هذه القضية، أي البيان القرآني⁹.

٢. بيان معاني الآيات

في تفسير أبي السعود تجد أن المؤلف بعد الوقوف على الآيات التي ذكرت فيها وضع الظاهر موضع الضمير، بين معاني الآيات قبل أن يبدأ حديثه عن موطن البلاغة في تلك الآيات، فلنأخذ مثلا: سورة يونس الآية

⁸ الإظهار في مقام الإضمار في القرآن الكريم مفهومه، أغراضه، وعناية المفسرين به، د. عبد الرزاق حسين أحمد، وزارة الأوقاف والؤون الإسلامية - الكويت، ١٤٣٣هـ، ص ٢٦.

⁹ انظر طريقة الطبري: التفسير والمفسرون، د. محمد الذهبي، مكتبة وهبة - القاهرة، د.ت.، ج ١ ص ١٥١.

٣٩ في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٣٩﴾ فترى أبا السعود في هذا الموطن قبل أن يبادر كلامه عن الوجه البلاغي، فإنه أولاً يبين معنى الآية، قال أبو السعود: (وهم الذين من قبيلهم من المكذبين)¹⁰.

٣. الإشارة إلى وجه الشاهد في الآية التي ذكر الإظهار في مكان الإضمار

وبعد ذكر البيان لمعاني الآيات التي توجد وجه البلاغة، أشار أبو السعود إلى وجه الشاهد في الآية، يعنى أن هذه الآيات لها موضع يوجد فيها وضع الظاهر مكان الضمير، لأن الآية قد تكون طويلة ويصعب على القارئ أن يعرف أين وجه الشاهد في الآية، فترى أبا السعود يحدد تماماً ذلك الموقع. نأخذ مثلاً الآية التي ذكرنا قبل قليل، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٣٩﴾ فأبو السعود يحدد أن وجه الشاهد هو جملة الآية {فانظر كيف كان عاقبة الظالمين}.¹¹

٤. بيان الأغراض لهذا الوجه البلاغي

أبو السعود بعد أن يسلك المسلك الذي ذكرنا من قبل، فإنه يشرع في ذكر الغرض في وضع الظاهر مكان الضمير، وترى أن هذه النقطة من أهم النقاط لأنها تعطي لنا براعة الفهم عند أبي السعود ودقة تدبره للآية، وبذلك اتضح اتجاهه في البيان القرآني. بل إن هذه الدراسة التي بين أيدينا في الحقيقة تعتمد على تلك النقطة، وهي بيان الغرض لوجه البلاغة القرآنية. وتحدث مزيداً عن هذه النقطة في المبحث الثالث إن شاء الله. ولنأخذ مثلاً واحداً قبل اختتام هذا الرقم.

¹⁰ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص١٤٧.

¹¹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص١٤٧.

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^{١١} قال أبو السعود معلماً هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي عمل جنس المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحر دخولاً أولياً أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمّر للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلّة الحكم وليس المراد بعدم إصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحاً بل عدم إثابته وإتمامه أي لا يُثبت ولا يكلمه ولا يُدبمه بل يحقّه ويهلكه ويسلّط عليه الدمار والجملة تعليل لما سبق من قوله إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ والكلّ اعتراضٌ تذييليٌّ وفيه دليلٌ على أنّ السحر إفسادٌ وتمويهٌ لا حقيقةً له^{١٢}. تجد في عبارة أبي السعود أنه يذكر أن الغرض في وضع الظاهر مكان الضمير في تلك الآية للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلّة الحكم وليس المراد بعدم إصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحاً بل عدم إثابته وإتمامه أي لا يُثبت ولا يكلمه ولا يُدبمه بل يحقّه ويهلكه ويسلّط عليه الدمار^{١٣}.

الآيات التي ذكرت فيها الإظهار مكان الإضمار

بعد أن تتبععت تفسير أبي السعود من خلال بداية سورة يونس إلى نهاية سورة يوسف وجدت أن أبا السعود كان يتحدث عن قضية وضع الإظهار مكان الإضمار في أربع مرات. وكان أبو السعود -على اختلاف عبارة العلماء في ذكر هذا الوجه البلاغي- فإنه يناديه بعبارة "وضع المظهر موضع المضمّر". والدارس لعلم البلاغة يجد أن

¹² إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص١٧٠.

¹³ انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص١٧٠.

تلك العبارة هي نفس العبارة التي استعملها الأقدمون، مثل الزمخشري¹⁴ في القرن السادس الهجري أو البيضاوي¹⁵ في القرن السابع الهجري أو القزويني¹⁶ في القرن الثامن الهجري.

فهذه الآيات التي التفت إليها أبو السعود لما لها من ذكر الإظهار مكان الإضمار؛

الآية الأولى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٣٩﴾ قال أبو السعود: {فانظر كيف كان عاقبة الظالمين} وهم الذين من قبلهم من المكذبين وإنما وضع المظهر موضع المضمرة¹⁷.

الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ٨١﴾ قال أبو السعود: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ} أي عمل جنس المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحر دخولاً أولاً أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمرة¹⁸.

الآية الثالثة: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ٧٣﴾ قال أبو السعود: «{رَحْمَةُ اللَّهِ} التي وسعت كل شيء واستتبت كل خير وإنما وضع المظهر موضع المضمرة¹⁹.

¹⁴ انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، دار الكتاب العربي - بيروت ٨٠١٤ هـ ج ٣ ص ٤٧٠.

¹⁵ انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤١٨ هـ، ج ١ ص ١٢٥.

¹⁶ انظر: الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني، دار الجليل - بيروت، د.ت.، ج ٢ ص ٨٤.

¹⁷ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج ٤ ص ١٤٧.

¹⁸ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج ٤ ص ١٧.

¹⁹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج ٤ ص ٢٢٦.

الآية الرابعة: ﴿قَالُوا أَوَآتَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٩٠﴾ قال أبو السعود: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي أجرهم وإنما وُضع المظهر موضع²⁰.

فهذه هي أربع آيات التي توجد مقولة أبي السعود حول وضع الإظهار مكان الإضمار، لكنني أتوقع أن هناك آيات توجد فيها الإظهار مكان الإضمار في سورة يونس إلى سورة يوسف غير المواضع المذكورة، ربما تركها أبو السعود قصداً أو سهواً، وفي المبحث التالي سنتحدث عن أغراضها عند أبي السعود إن شاء الله.

الأغراض الأربعة عند أبي السعود في تلك الآيات

وجدت أبا السعود في أقواله حول موضوع الإظهار مكان الإضمار من بداية سورة يونس إلى نهاية سورة يوسف كان يذكر الأغراض المختلفة، وهنا أسردها في النقاط الآتية:

الغرض الأول: الإيذان بكون الشيء ظلماً

في سورة يونس الآية 39 قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ٣٩﴾ قال أبو السعود: ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ وهم الذين من قبلهم من المكذبين وإنما وضع المظهر موضع المضمرة للإيذان بكون التكذيب ظلماً أو بعليته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبة وبدخول هؤلاء الظالمين في زمرة جرمهم ووعيداً دخولهم أولاً وقوله عز وجل²¹. فأبو السعود يرى أن من أغراض وضع الظاهر مكان الضمير للإيذان، وكان يمثلها بهذه الآية التي يكون غرضها للإيذان بكون

²⁰ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص٣٠٤.

²¹ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص١٧٤.

التكذيبِ ظلماً أو بعلّيته لإصابة ما أصابهم من سوء العاقبة. وإذا أنعمنا النظر في كتب التفسير خاصة التي تهتم بالبيان القرآني، وجدنا أن من جاء بعدهم من المفسرين قد تأثروا بأبي السعود بأن يذكروا مثل هذا الغرض في كتبهم.

كما تأثر الألوسي حينما ذكر نفس الغرض في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿وَلَيْنُ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَعُوذُوا بِهَا وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلْتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَهُ بَعْضٌ ۚ وَلَيْنُ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ عَطْفَ عَلَى وَإِنَّ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ أَن كَلَامَهُمَا مُؤَكَّدٌ لِأَمْرِ الْقِبَلَةِ وَمَبِينٌ لِحَقِيَّتِهِ وَالْمُرَادُ مِنَ الْمَوْصُولِ الْكُفَّارِ مِنْ أَوْلَيْكَ بِدَلِيلِ الْجَوَابِ وَلِذَا وَضَعَ الْمَظْهَرَ مَوْضِعَ الْمَضْمَرِ وَمِنْ خِصِّ مَا تَقَدَّمَ بِالْكَفَّارِ جَعَلَ هَذَا الْوَضْعَ لِلْإِيذَانِ بِكَمَالِ سُوءِ حَالِهِمْ مِنَ الْعِنَادِ مَعَ تَحَقُّقِ مَا يَنَافِيهِ مِنَ الْكِتَابِ الصَّادِحِ بِحَقِيَّةِ مَا كَابَرُوا فِي قَبُولِهِ بِكُلِّ آيَةٍ وَحِجَّةٍ قَطْعِيَّةٍ دَالَّةٍ عَلَى أَن تَوَجَّهْتَ إِلَى الْكَعْبَةِ هُوَ الْحَقُّ²².

الغرض الثاني: التسجيل على الناس بالإفساد والإشعارِ بعلّة الحكم

تجدد أبا السعود في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ لَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ۗ﴾^{٨١} يذكر غرضاً آخر غير غرضه الأول، قال أبو السعود: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أي عمل جنس المفسدين على الإطلاق فيدخل فيه السحر دخولاً أولياً أو عملكم فيكون من باب وضع المظهر موضع المضمّر للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعارِ بعلّة الحكم وليس المرادُ بعدم إصلاح عملهم عدم جعل فسادهم صلاحاً بل عدم إثابته وإتمامه أي لا يُثبته ولا يكلمه ولا يُدعّمه بل يحقّقه ويهلكه ويسلّط عليه الدمار

²² روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٥هـ، ج ١

والجملة تعليل لما سبق من قوله إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ وَالْكُلُّ اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ وفيه دليلٌ على أَنَّ السحر إفسادٌ وتمويهٌ لا حقيقة له²³.

أبو السعود قال بأن من أغراض وضع الظاهر مكان الضمير هو للتسجيل، وفي هذه الآية للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعلّة الحكم. ووجدت أن شرف الدين الطيبي في القرن الثامن الهجري قد ذكر مثل هذا الغرض في حاشيته على تفسير الزمخشري. وإذن يمكن أن نقول أن أبا السعود قد أفاد من الطيبي في هذه القضية.

قال الطيبي معلقاً لتفسير الزمخشري: (قوله: {قَالَتَيْنِ كَفَرُوا} إشارة إليهم) فيكون من وضع المظهر موضع المضمّر للتسجيل على كفرهم، والدلالة على أنه الموجب للدمار، فالتعريف فيه للعهد، وعلى أن يراد بهم كل من كفر للجنس، فقوله: "أو المغلوبون في الكيد"، عطف على قوله: "هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم" على طريقة النشر لإرادة أن التعريف إما للعهد أو للجنس²⁴

الغرض الثالث: الزيادة في الشرف

وقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿قَالُوا أَتَعْجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ٧٣﴾ قال أبو السعود: {رَحْمَةُ اللَّهِ} التي وسعت كل شيء واستتبع كل خير وإنما وضع المظهر موضع المضمّر لزيادة تشريفها²⁵. المفترض أنه قال "أتعجبين من أمر الله ورحمته" جاء بضمير الغيبة، ولكنه جاء بالمظهر، والغرض كما ذكرنا كلام أبي السعود للزيادة، وهنا يقصد زيادة التشريف.

²³ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص١٧٠.

²⁴ حاشية الطيبي على الكشاف المسمى بفتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم - دبي، ٢٠١٣م، ج١٥ ص٦٤.

²⁵ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج٤ ص٢٢٦.

وقد أفاد من جاء بعدهم مثل القاسمي في تفسيره لما قال: (القول في تأويل قوله تعالى: [سورة الكهف

(١٨) : آية ١١٠] { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا } قُلْ أَيُّ لَهْوَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ أَيَّ خَصَّصْتُ بِالْوَحْيِ وَتَمَيَّزْتُ عَنْكُمْ بِهِ. فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ أَيَّ يَخَافُ الْمَصِيرَ إِلَيْهِ، أَوْ يَأْمَلُ لِقَاءَهُ وَرُؤْيَيْتَهُ، أَوْ جَزَاءَهُ الصَّالِحِ وَثَوَابَهُ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا أَيَّ فِي نَفْسِهِ، لِاتِّقَا بِذَلِكَ الْمَرْجُوِّ، وَهُوَ مَا كَانَ مُوَافِقًا لِشَرَعِ اللَّهِ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا أَيَّ مِنْ خَلْقِهِ إِشْرَاكَ جَلِيًّا. كَمَا فَعَلَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ. وَلَا إِشْرَاكَ خَفِيًّا. كَمَا يَفْعَلُهُ أَهْلُ الرِّيَاءِ، وَمَنْ يَطْلُبُ بِهِ أَجْرًا مِنَ الْمَدْحِ وَتَحْصِيلِ الْمَالِ وَالْجَاهِ. قَالَ أَبُو السَّعُودِ: وَإِثَارَ وَضَعِ الْمَظْهَرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ فِي الْمَوْضِعِينَ، مَعَ التَّعَرُّضِ لِعَنْوَانِ الرَّبُّوبِيَّةِ، لَزِيَادَةِ التَّقْرِيرِ، وَلِلإِشْعَارِ بِعَلِيَّةِ الْعَنْوَانِ لِلأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَوُجُوبِ الْإِمْتِنَالِ فَعَلًا وَتَرْكًا)²⁶.

وأصبح هذا المصطلح "وضع المظهر موضع المضمّر" أكثر انتشاراً بين العلماء والباحثين بسبب كثرة النقول واستعماله في كتبهم ومقالاتهم، وجعل من أغراضه لزيادة الشيء، بل الخطيب القزويني في الإيضاح قد أشار إليها بأن وضع المظهر موضع المضمّر غرضه لزيادة الشيء، قال القزويني: (وإن كان المظهر غير اسم إشارة: فالعدول إليه عن المضمّر لزيادة التمكن، كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ} [الإخلاص: ١-٢])²⁷.

الغرض الرابع: التنبيه على أن الصفات المذكورة من قبل داخله في الصفة التي ستذكر بعدها في السياق

²⁶ محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٨هـ، ج ٧ ص ٨٢.

²⁷ الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين القزويني، دار الجيل - بيروت، د.ت.، ج ٢ ص ٨٤. بتصرف

في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوَآءَانِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قال أبو السعود: (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} أي أجرهم وإنما

وُضِعَ المظهرُ موضعَ المضمَرِ تنبيهاً على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالإحسان)²⁸.

أدركننا أبا السعود يرى أن غرض وضع المظهر في هذا الموطن هو أن القرآن يريد أن ينبه على ما يدل عليه

صفة الإحسان، وهما الصبر والتقوى. ولعل مثل هذا الأمور ما قاله ابن عاشور في قوله تعالى ﴿أُمَّ حَسِبْتَ أَنْ

أَصْحَبَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ٩ إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ١٠﴾.

إذ أن المفترض أن يقول " إذ أووا" لكنه قال " إذ أوى الفتية" كأن القرآن في إظهاره يريد أن ينبه القارئ

على ما يدل عليه اللفظ. قال ابن عاشور: (وهذا من الإظهار في مقام الإضمار لأن مقتضى الظاهر أن يقال: إذ

أووا، فعدل عن ذلك لما يدل عليه لفظ الفتية من كونهم أترابا متقاربي السن. وذكرهم بهذا الوصف للإيماء إلى ما

فيه من اكتمال خلق الرجولية المعبر عنه بالفتوة الجامع لمعنى سداد الرأي، وثبات الجأش، والدفاع عن الحق،

ولذلك عدل عن الإضمار فلم يقل: إذ أووا إلى الكهف)²⁹

النتائج

هذه الدراسة تخرج لنا النتائج العلمية كالاتية:

- إن تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود له اهتمام عظيم في قضية موضع

الإظهار مكان الإضمار.

²⁸ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت.، ج ٤

ص ٣٠٤.

²⁹ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م، ج ١٥ ص ٢٦٦.

- إن أبا السعود له منهج خاص في عرض هذه القضية، وهو أولاً يقف على الآية، ثم يبين معاني الآية، ويذكر وجه الشاهد، وفي الأخير أنه يذكر الأغراض البلاغية عند وجه نظره.
- فقد جاء بعض الآيات عددها تقريبا أربع، في ما يتعلق بوضع الإظهار مكان الإضمار من خلال سورة يونس إلى سورة يوسف في تفسير إرشاد العقل السليم.
- يذكر أبو السعود من خلال سورة يونس إلى سورة يوسف الأغراض المختلفة لوضع الظاهر مكان الضمير.
- قد أفاد أبو السعود هذه الأغراض ممن جاء قبله كالزخشي والخطيب القزويني.
- أبو السعود له تأثير فيمن جاء بعده في هذه القضية، وهؤلاء منهم؛ شهاب الدين الألوسي في تفسيره روح المعاني، وجمال الدين القاسمي في تفسيره محاسن التأويل، وابن عاشور في التحرير التنوير، ويبدو تأثير أبي السعود عندهم واضح جدا لما فيها من الإفادة أو النقول عنه.

المصادر و المراجع

- أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى. (بلا تاريخ). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. بيروت: دار إحياء التراث.
- الدكتور فاروق حمادة. (١٩٩٥م). منهج البحث في الدراسات الإسلامية تأليفاً وتحقيقاً. الدار البيضاء: مطبع النجاح الجديدة.
- الدكتور فريد الأنصاري. (٢٠٠٩م). أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة.
- خير الدين بن محمود بن علي بن فارس الزركلي. (٢٠٠٢م). الأعلام. دار العلم للملايين.
- د. فريد بن عبد العزيز السليم. (بلا تاريخ). منهج أبي السعود في تفسيره من خلال ما كتب عنه. مجلة الحكمة.
- د. فضل حسن عباس. (٢٠١٨م). البلاغة فنونها وأفانها علم المعاني. عمان: دار النفائس.
- د. محمد حسين الذهبي. (بلا تاريخ). التفسير والمفسرون. القاهرة: مكتبة وهبة.

شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي. (٢٠١٣م). حاشية الطيبي على الكشاف المسمى بفتوح الغيب في الكشف عن إقناع الريب. دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألووسي. (١٤١٥هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. بيروت: دار الكتب العلمية.

عبد الرزاق حسين أحمد. (١٤٣٣هـ). الإظهار في مقام الإضمار مفهومه، أغراضه، وعناية المفسرين به. الكويت: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي. (١٩٨٤م). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية.

محمد بن عبد الرحمن بن عمر جلال الدين القزويني. (بلا تاريخ). الإيضاح في علوم البلاغة. بيروت: دار الجيل.

محمد جمال الدين القاسمي. (١٤١٨هـ). محاسن التأويل. بيروت: دار الكتب العلمية.

محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري. (١٤٠٨هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. بيروت: دار الكتاب العربي.

ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. (١٤١٨هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: دار إحياء التراث العربي.